باتريك زوسكند

ثلاث حكايات وملاحظة تأملية



الترجمة عن الألمانية:

كاميران حوج

منشورات الجمل

قصص

ولد باتريك زوسكند عام ١٩٤٩ في أمباخ ـ ألمانيا. مارس الصحافة [illegible] وعمل في الراديو والتلفزيون. صدر له عن منشورات الجمل: العطر (٢٠٠٧)؛ الكونترباص (٢٠٠٧)؛ الحمامة (٢٠٠٧).

ولد كاميران حوج عام ١٩٦٨ في تك أربد ـ سوريا. له العديد من الترجمات عن الألمانية صدر له عن منشورات الجمل غونتر غراس: في خطو السرطان، قصة (٢٠٠٦)؛ العطر (٢٠٠٧)؛ الحمامة (٢٠٠٧)

باتريك زوسكند: ثلاث حكايات وملاحظة تأملية، قصص
الترجمة عن الألمانية: كاميران حوج
الطبعة الأولى ٢٠٠٧

Postfach 210149, 50527 Köln Germany
Tel: 0221 736982, Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

ثلاث حكايات

بحثاً عن العمق

راغباً في تشجيعها، ومن دون أي سوء نية، قال ناقد لفتاة من شتوتغارت، ترسم لوحات جميلة، في أول معارضها: «إن ما تقومين به موهوب ولافت للنظر، لكن عندك القليل جداً من العمق».

لم تفهم الفتاة ما يعنيه الناقد، وفي الحال نسيت ملاحظته. لكن بعد يومين، نشرت الجريدة لقاءً مع الناقد نفسه جاء فيه: «تملك الفنانة الشابة الكثير من الموهبة وتثير أعمالها الإعجاب من النظرة الأولى، لكنها للأسف تفتقر إلى العمق».

بدأت الفتاة بالتفكير. تأمّلت في رسوماتها. نقّبت في محافظ لوحاتها القديمة. تأمّلت جميع رسوماتها السابقة والرسومات التي تعمل عليها. ثم سدّت زجاجات الحبر الصيني. غسلت الفراشي وذهبت كي تتمشى.

في المساء نفسه دُعيت إلى حفل. كان الجميع قد حفظ النقد عن ظهر قلب وكرروا الحديث عن الموهبة الكبيرة والإعجاب الشديد اللذين تثيرهما اللوحات من النظرة الأولى. لكن الفتاة تمكنت أن تلتقط من خلفية الدمدمة ومن أولئك الذين تقف وراءهم، إذ أصاخت السمع: «ليس عندها عمق.

هذا بالضبط ما ينقصها. هي ليست سيئة، لكن للأسف ليس لديها عمق».

طوال الأسبوع التالي، لم ترسم الفتاة شيئاً. جلست صامتة في شقتها. أمعنت التفكير وجالت برأسها فكرة واحدة فقط، حاصرت أفكارها الأخرى مثل أخطبوط الأعماق وبلعتها: «لماذا ليس لدي عمق؟».

في الأسبوع الثاني حاولت الفتاة أن ترسم من جديد، لكنها لم تتعد مشاريع لوحات لا مهارة فيها. وأحياناً لم تتمكن من رسم خط واحد. بالنهاية ارتجفت ارتجافاً شديداً، لم تقدر بعده على غمس الريشة في زجاجات الحبر الصيني. فبدأت بالبكاء وأعولت: «نعم، صحيح ما يقولون، ما عندي عمق».

في الأسبوع الثالث بدأت تحدّق في كتب الفن، تدقق في أعمال الرسامين الآخرين، تتجول بين المعارض والمتاحف. قرأت كتبا نظرية عن الفن. ذهبت إلى المكتبة وطلبت من البائع أعمق ما لديه من الكتب. حصلت على عمل لكاتب اسمه (فيتغنشتاين). ولم تستفد منه شيئاً.

انضمّت أثناء تجوالها في معرض أقيم في متحف المدينة تحت عنوان «٥٠٠ عام من الرسم الأوروبي» إلى مجموعة من التلاميذ يقودهم مدرس الفنون. فجأة، أمام لوحة من أعمال ليوناردو دافنشي، تقدمت إلى المدرس وسألته: «المعذرة، هل لكم أن تشرحوا لي، إن كان في هذا الرسم عمق؟». ابتسم لها

المدرس ابتسامة ماكرة وقال: «إذا كنت تنوين أن تتسلي معي، عليك أن تكوني أكثر مهارة، سيدتي الموقرة». ضحك التلاميذ من أعمالق قلبهم. إلا أن الفتاة مضت إلى البيت وبكت بمرارة.

ازدادت غرابة الفتاة. لم تعد تترك مرسمها إلا بالكاد ورغم ذلك لم تتمكن من العمل. تناولت الحبوب لتبقى يقظى، دون أن تعلم ما الداعي لأن تبقى يقظة. وعندما تتعب، كانت تنام في كرسيها، لأنها تخاف الذهاب إلى السرير، خشية عمق النوم. ثم إنها بدأت بالشراب وتركت الأضواء مشتعلة في الشقة طوال الليل. لم تعد ترسم. عندما اتصل بها تاجر فن من برلين طالبا بعض لوحاتها، صرخت في التلفون: «اتركني بحالي. ليس لديّ عمق».

عجنت الصلصال بين الحين والآخر، لكنها لم تشكل شيئاً معيناً. اكتفت بدس أناملها في الصلصال أو شكلت كبيبات صغيرة. أهملت مظهرها. لم تعد تأبه بملبسها وتبهدلت شقتها.

قلق عليها أصدقاؤها وقالوا: «يجب الاهتمام بها، فهي في أزمة. إما أن الأزمة إنسانية أو أنها فنية، وربما كانت مالية. في الحالة الأولى لا يمكن فعل شيء. في الحالة الثانية، عليها تجاوز محنتها. وفي الحالة الثالثة يمكننا أن نجمع لها التبرعات، لكن أغلب الظن أن هذا سيؤذي مشاعرها». وهكذا

اكتفوا بدعوتها إلى الطعام والحفلات. رفضت كل الدعوات بحجة العمل. لكنها لم تعمل، بل كانت تجلس في غرفتها، تحدق أمامها وتعجن الصلصال.

ذات مرة يئست من نفسها يأساً شديداً وقبلت إحدى الدعوات. أراد شاب أعجب بها أن يأخذها إلى البيت كي يضاجعها. قالت إن اصطحابه لها يسرّها، فهو أيضاً يعجبها، لكن عليه أن يحتاط، فهي لا تملك عمقاً. وعليه وقف الشاب على مسافة منها.

تدهور وضع الفتاة، التي كانت ترسم ذات مرة لوحات جميلة، بشكل ملحوظ. لم تعد تخرج مطلقاً، لم تعد تستقبل أحداً. سمنت بسبب قلة الحركة و شاخت سريعا بسبب الكحول والحبوب. بدأت شقتها بالتعفن وفاحت منها هي رائحة حامضة.

كانت قد ورثت ٣٠ ألف مارك، عاشت منها طوال ثلاثة أعوام. وقامت خلال تلك الفترة برحلة إلى نابولي، لا يعلم أحد تحت أية ظروف. من كلمها حصل منها جواباً على دمدمة غامضة. وعندما انفقت نقودها، مزقت المرأة الشابة رسوماتها وثقبتها. صعدت برج التلفزيون وقفزت من ارتفاع ١٣٩ م. إلى العمق. لكن ولأن رياحاً قوية هبت ذلك اليوم، لم تتحطم على الساحة الإسفلتية تحت البرج، بل حملتها الرياح عبر حقل

الشوفان بعيداً حتى أطراف الغابة، حيث سقطت على أشجار التنوب. إلا أنها، رغم ذلك، ماتت.

شاكرة التقطت الصحافة الصفراء الموضوع. كان للانتحار بحد ذاته، مسار الطيران الغريب، واقعة أن المنتحرة كانت فنانة واعدة، وعلاوة عليه وسيمة، قيمة معلوماتية عالية. ظهر أن وضع شقتها مأساوي، التقطت لها صور مثال على الشقاء. آلاف الزجاجات المفرغة. علامات الخراب في كل مكان. لوحات ممزقة، بقع الصلصال على الجدران، بل وحتى الفضلات في الزوايا. خاطرت الصحافة بعنوان رئيسي ثان وتقرير على الصفحة الثالثة.

في الصفحة الأدبية، كتب الناقد المذكور أعلاه، تعليقاً عبر فيه عن شديد أسفه، لنهاية الفتاة هذه النهاية المؤلمة: "من جديد تهزنا من الأعماق، نحن الباقين، حقيقة أن نرى موهبة شابة، لا تملك من القوة ما يكفيها لتثبت وجودها في المشهد الفني. هنا لا يلعب تشجيع الدولة والمبادرات الفردية الدور الحاسم، عندما يتعلق الأمر بأن يفسح المجال بالدرجة الأولى لصب الاهتمام في الحقل الإنساني ولمرافقة متفهمة في القطاع الفني. بيد أن بوغ هذه النهاية المأساوية يقع بالنتيجة في الفرد. أفلا تنطق أعمالها الأولى، الساذجة ظاهرياً، بذلك التمزق المرعب، ألا يقرأ من تقنياتها صعبة المراس، صاحبة الرسالة،

ذلك التمرّد الموجّه إلى الداخل، الذي يحفر الذات حلزونياً، غير المجدي بشكل واضح، الذي يبديه المخلوق على ذاته؟ ذلك البحث الجبري خطير العواقب، أودّ القول، الذي لا يرحم، عن العمق».

الصراع

مساء أحد أيام آب، بعدما غادر أغلب الناس الحديقة، يتواجه رجلان على رقعة شطرنج في سرادق في الزاوية الشمالية الغربية في حديقة لوكسمبورغ ويتابع جمهور يزيد تعداده على العشرة المباراة باهتمام شديد، لدرجة ألا يخطر على بال أحد أن يغادر المشهد قبل ظهور نتيجة الصراع، رغم اقتراب ساعة المشهيات.

انصب اهتمام الجمهرة الصغيرة على المتحدي، وهو شاب ذو شعر أسود، وجه شاحب وعينين داكنتين منتفختين. جامد القسمات، لا ينبس بكلمة، يكتفي بأن يدير بين الحين والآخر سيكارة بين أصابعه. إنه تجسيد لعنفوان الشبيبة واللامبالاة. لا يعرفه أحد، ولم يره أحد يلعب قبلاً. إلا أن جاذبيته القوية ظهرت منذ اللحظة الأولى، حيث جلس إلى رقعة الشطرنج ليرتب القطع، بحيث تيقن كل من رآه، أنه يرى شخصية خارقة، تتمتع بموهبة عالية وعبقرية. قد يكون مظهر الشاب الجذاب والمترفع في آن واحد، ثيابه الأنيقة واتساقه الجسدي، قد يكون الهدوء والثقة المرتسمان في ملامحه، قد تكون هالة الغرابة والتميز التي تشع منه، السبب في ذلك، فعلى كل حال

وثق الجمهور كامل الثقة، حتى قبل تحريك أول بيدق، أن الشاب لاعب شطرنج من الدرجة الأولى، وسينجز معجزة يتوق الجميع سراً إلى تحقيقها، ألا وهي التغلب على بطل الشطرنج المحلي.

وهذا الرجل الضئيل القبيح، الذي يبلغ من العمر حوالي السبعين عاما، نقيض منافسه تماما من جميع النواحي. يرتدي بزة المتقاعد الفرنسي، ذات البنطال الأزرق والصديري الصوفي، الملوثة ببقايا الطعام. على يديه المرتعشتين تظهر علامات الشيخوخة، شعره خفيف، أنفه خمري وعروق وجهه بنفسجية. يفتقد كل هالة وعلاوة على كل هذا طليق الذقن. يمج عقب سيكارته بعصبية. يتقلقل في كرسي الحديقة ويهز رأسه دون انقطاع متفكراً ويعرفه الواقفون حق المعرفة، فقد لعب ضده الجميع، وخسروا. فرغم أنه ليس لاعب شطرنج عبقريا قط، إلا أنه يتمتع بمزية تنهك أعصاب الخصوم، تغيظهم، وتجدر بإثارة حقدهم، فهو لا يخطئ أبداً. فلا يمكن بحال من الأحوال أن يتساهل معهم بأي خطأ صغير. وكي ينتصر عليه أحد، يجب أن يلعب حقاً أفضل منه. وهذا تماما ما سيحدث اليوم، كما شعر الجمهور، فقد شاهدوا بطلا من طراز جديد، سيصلب المصارع العجوز. من قال يصلبه؟ سيمزقه شر تمزيق، سيبيده نقلة إثر نقلة، سيجعله أثراً بعد عين ويذيقه أخيراً مرارة الهزيمة. سينتقم لهزائم الكثيرين.

خلال النقلات الأولى كانوا يصرخون: «احذر جان، احذر. جاءك الموت يا تارك الصلاة. لن تنتصر عليه، جان. إنها واترلو جان. انتبه، اليوم تقوم معركة واترلو جديدة». «ايه، ايه، طيب» يجيب العجوز، يهز رأسه ويحرك بيدقه الأبيض بيد مترددة. ويسود السكون كلما جاء دور الغريب في تحريك القطع السوداء. لا أحد يجرؤ على توجيه الكلام إليه. يراقبه الجميع بانتباه خاشع وهو جالس بصمت إلى رقعة الشطرنج، لا يرفع نظراته المتأملة عن القطع، يدير السيكارة غير المشعولة بين أصابعه ويلعب، إذا جاءه الدور، بنقلات واثقة، سريعة.

أخذت النقلات الأولى مسارها المعتاد. ثم تبودلت البيادق مرتين، انتهت ثانيتهما بأن تراكب بيدقان أسودان على خط واحد، ما لا يعتبر عادة خطوة موفقة. لكن الشاب الغريب اتخذ هذه الخطوة الخاسرة عن كامل وعي وإصرار، ولا بد، حتى يفسح الطريق أمام الملكة. كما لابد أن تكون التضحية التالية بالبيدق في سبيل الغاية ذاتها، نوعاً من أنواع التضحية التكتيكية، تقبلها الأبيض متردداً وخائفاً. يتبادل المشاهدون نظرات ذات معنى. يومئون مستغربين، ينظرون إلى الغريب مندهشين.

هذا يتوقف لحظة عن تدوير السيكارة بين أصابعه، يرفع يده، يمدها إلى الأمام. وحقاً! إنه يحرك الملكة. ينقلها بعيداً

إلى خطوط الخصم، يقسم بجرة واحدة ساحة الوغى قسمين. يتنحنح الجمهور مبديا رضاه. يا للنقلة المتقنة! يا للإنطلاقة البارعة! طبعا توقع الجميع أنه سيحرك الملكة. لكن أن ينقلها إلى مراكز العدو؟! لما تجرأ أحد من المشاهدين، وهم خبراء الناس، أن يقوم بهذه النقلة. لكن هكذا هم المعلمون الحقيقيون. المعلم الحقيقي يعرف أصول اللعب، يغامر، يقرر بحزم. ببساطة يعلو بدرجات على اللاعب العادي. ولهذا فلا يفترض في اللاعب العادي أن يفهم كل نقلة من نقلات المعلم، فـ. . . وفعلاً لم يفهم أحد ما الذي ستعمله الملكة هناك، حيث تتواجد. فهي لا تهدد أي قطعة حيوية، إنما مجرد بيادق محمية بدورها. لكن الهدف والمعنى الحقيقي للنقلة سيتضحان للحال، فللمعلم خطة ولابد، ما يلاحظ من صلابة قسمات وجهه، من يده الهادئة، الواثقة. بعد هذه النقلة غير العادية، اتضح لآخر مشاهد أن الجالس إلى رقعة الشطرنج عبقري، لا مثيل له. ولم يعد لجان، البطل العجوز، نصيب إلا في الشفقة الشامتة. ما بيده ليقاوم به هذه النقلة المدمرة. الكل يعرفه ولابد أنه سيلعب لعب الخطوة خطوة الممل، سيحاول التهرب من الفضيحة بلعب الخطوة خطوة الحذر الممطوط. وبعد تردد وموازنة طويلة يضرب جان ضربته. يهاجم بيدقاً حقيراً على H4، فقد حمايته بسبب حركة الملكة، عوض الرد على النقلة الواسعة بجواب واسع.

لكن الشاب لا يعبأ بخسارة بيدق، لا يتردد ثانية واحدة، ثم تنتقل ملكته إلى اليمين، تهاجم قلب جيش العدو، تحط في خانة، بحيث تهدد منها ضابطين، حصاناً ورخاً، في آن واحد وتتغلغل علاوة عليه، لتشكل خطراً على خط الملك. يتوهج الإعجاب في أعين المشاهدين. يا له من عفريت، هذا الأسود! يا لشجاعته. يدمدمون: «إنه خبير. إنه معلم كبير. إنه (ساراسات) الشطرنج». وبفقدان صبر ينتظرون رد جان، بفقدان صبر ليعرفوا ما هي خطوة الأسود التالية.

جان يتردد. يفكر، يتعذب، يتقلقل في كرسيه، يهز رأسه. منظره يثير الشفقة. هيا جان، هيا العب ولا تؤخر سير الأحداث، الذي لا محيص منه.

أخيراً يلعب جان. أخيراً يضع بيد مرتعشة الحصان في خانة لا يتخلص فيها من تهديد الملكة فحسب، بل ويهددها من ناحيته ويحمي الرخ بآن واحد. وهل بيده شيء آخر يفعله في هذا الوضع العسير! لكنا جميعاً، نحن الواقفين هنا، قمنا بالنقلة ذاتها. ويتهامسون: «لكن هذه النقلة لن تخلصه. حسب الأسود حسابها ولا بدّ». فحالما يضع جان حصانه، تمتد يد الشاب عبر الرقعة كالصقر، تتناول الملكة وتنقلها. . . لا، إنه لا يتراجع جبناً، كما كنا سنفعل نحن، بل ينقلها خانة واحدة ...و اليمين. مستحيل! يتحجر الرجال إعجاباً. لم يفهم أحد ...لاً ما فائدة النقلة، فبها صارت الملكة على حافة الساحة، لا

تهدد شيئاً ولا تحمي شيئاً، تقف وحيدة بدون أي قيمة، لكنها جميلة في موقعها، جمالها يخلب الألباب، لم يسبق لملكة أن اتخذت موقعا بهذا الجمال، وحيدة، فخورة وسط خطوط العدو. كما أن جان أيضاً لا يفهم ما هدف خصمه الرهيب من هذه النقلة، إلى أي فخ يريد أن يجره ويقرر بعد تأمل طويل وبعذاب ضمير أن يأكل بيدقاً غير محمي. وبهذا صار متفوقاً على الأسود، كما عد الجمهور، بثلاثة بيادق. لكن ما قيمة ثلاثة بيادق؟ ما فائدة التفوق العددي مع عدو يفكر تفكيراً استراتيجياً، عدو لا يعبأ بالقطع، إنما بالموقع، بتطور اللعب، بالضربة الفجائية القاصمة، السريعة سرعة البرق؟ الله يعينك جان! دعك تلتقط البيادق عندما يسقط ملكك في النقلة القادمة!

جاء دور الأسود. هادئاً يجلس الغريب، يدير سيكارته بين أصابعه. يفكر الآن أطول مما قبل، ربما دقيقة، دقيقتين. السكون المطلق سيد الموقف. لا يجرؤ أحد الواقفين على الهمس، بالكاد ينظر أحد إلى رقعة الشطرنج، يحدق الكل متوتراً في الشاب، في يديه وفي وجهه الشاحب. ألا يلوح شبح ابتسامة على زوايا فمه؟ ألا يشاهد انتفاخ بسيط على منخريه، مثلما يحدث عادة قبل اتخاذ قرارات عظيمة؟ ما هي نقلته التالية يا ترى؟ ما هي الضربة القاصمة، التي يتهيأ لها المعلم؟

تتوقف السيكارة عن الدوران، ينحني الغريب نحو الأمام،

عشرات العيون تتابع يده، ما هي نقلته، ما هي نقلته التالية؟... ويأخذ البيدق من G7، من كان يتصور هذا! البيدق من G7! من G7 إلى... G6.

ثانية من السكون المطلق تتبع النقلة. حتى العجوز جان يتوقف برهة عن الارتعاش والقلقلة. ومن ثم، يكاد الجمهور أن ينطلق في التصفيق. ينفخ المتفرجون أنفاسهم المحبوسة، يلكز الواحد منهم جاره بمرفقه. هل رأيتم هذا؟ ابن بلد صحيح! هذا هو اللعب الحقيقي! يدع للملكة مكانتها الملوكية وينقل البيدق إلى G6! وهذه الخطوة تفتح G7 أمام فيله، لا بد أنه سيفعلها، وفي النقلة التالية سيقوم بكش ملك، ثم... ثم ماذا؟ حتما ولابد. ثم... ثم سيقضي على جان على كل حال في أقرب فرصة. هذا أكيد مائة في المائة. انظروا إليه، كيف يفكر منذ الآن متشنجا.

وحقاً يفكر جان. يفكر طويلاً. يدفعه الرجل إلى اليأس. أحياناً تمتد يده مرتجفة، ثم تنسحب من جديد. خلاص جان. انقل حجرتك جان، يكفي! نريد أن نرى المعلم.

وأخيراً، بعد خمس دقائق طوال، بعد أن دقت الأرض بالأقدام استنكاراً، يجرؤ جان على نقلة. يهجم على الملكة. يهاجم الملكة السوداء ببيدق. يريد النفاذ من قدره المحتوم بهذه الخطوة التي تمد في أجله. لعب أطفال. ليس على الأسود إلا أن يرجع ملكته خطوتين إلى الوراء وتنحل

المشكلة. جاءت نهايتك جان. لم تعد قادراً على التفكير، حلّت نهايتك . . .

فالأسود يمد يده، أترى جان! إنه لا يحتاج إلى الكثير من التفكير، الآن جاءت النهاية الحاسمة. الأسود يمد يده إلى. . . وهنا تتوقف قلوب الجميع لحظة، فالأسود، وخلافا لكل عقل واضح، لا يمد يده إلى الملكة ليهرب بها عن تهديد البيدق، إنما ينفذ الأسود مخططه السابق ويضع الفيل على G7.

ينظرون إليه مذهولين. يتراجعون نصف خطوة كأنما يتراجعون رهبة وينظرون إليه مذهولين. إنه يضحي بملكته ويضع الفيل على G7. ويقوم بهذا عن كل وعي دون أن تتقلص عضلة من عضلات وجهه، هادئاً وجالساً جلسة المنتصر، شاحباً، منتفخاً وجميلاً. هنا تدمع عيونهم وترق قلوبهم. إنه يلعب كما يشتهون أن يلعبوا ولا يجرؤون قط على اللعب. هم لا يفهمون لماذا يلعب كما يلعب، كما أنهم لا يبالون بالسبب، وربما يشعرون أنه يلعب لعبا انتحاريا. ورغم هذا يودون أن يتمكنوا من اللعب كما يلعب هو، عظيماً، واثقاً بالنصر، نابوليونيا. وليس مثل جان، الذي يفهمون لعبه الخائف المتردد، لأنهم لا يلعبون خلافه، إلا أنهم يلعبون أقل جودة منه. لعب جان عاقل. لعبه نظامي وحسب القواعد ومضن. والأسود، يقوم الأسود على العكس منه بمعجزة مع كل نقلة بمعجزة، يضحي بالملكة، كي يضع فيله على G7.

من رأى مثل هذا قبل اليوم؟ إنهم يقفون متأثرين بهذه المفخرة. ليلعب منذ الآن وصاعداً كما شاء، فهم سيتابعون اللعبة نقلة نقلة حتى النهاية، ولتكن ساطعة أو مريرة. ليكن. إنه الآن بطلهم وهم يحبونه.

وحتى جان، الخصم، اللاعب العقلاني، يتردد عندما ضرب بيد مرتجفة الملكة بالبيدق، كأنما يهاب البطل المبهر ويقول معتذراً بصوت خفيض، راجياً، آملاً ألا يرغم على ارتكاب هذه الجريمة: «إذا أعطيتموني إياها، مسيو. . . أنا أرى نفسي مجبراً. . . مجبراً. . .» وينظر نظرة راجية إلى خصمه، الذي يجلس كالتمثال ولا يجاوب. ويضرب العجوز كسير النفس محطما.

في اللحظة التالية يقوم الفيل الأسود بكش ملك. كش الملك الأبيض! يزداد تأثر الجمهور ويتحول شغفا. ينسى الجميع خسارة الملكة ويقفون وقفة رجل واحد خلف المتحدي الشاب وفيله. كش ملك. لكانوا أنفسهم لعبوا هكذا! هكذا بالضبط وليس خلافه. كش ملك! طبعا قد يكشف لهم تحليل منطقي بارد أن أمام الأبيض كثير من النقلات للدفاع عن ملكه، لكن هذا لا يهم أحداً. هم لم يعودوا راغبين في التحليل البارد، هم يريدون أن يروا أعمالا لامعة فحسب، هجمات عبقرية ونقلات قوية تقضي على الخصم. ليس للعب، لهذه اللعبة،

إلا هدف ومعنى واحد، هو رؤية الشاب الغريب منتصراً والمصارع العجوز ممرغاً في التراب.

يتردد جان، يتأمل. هو يعلم أن أحداً لن يراهن عليه بقرش واحد. لكنه لا يعرف لماذا. ويستغرب، فالآخرون، وهم خبراء شطرنج، لا يرون منعة وأمن مواقعه، وفوق هذا فهو منفوق على خصمه بملكة وثلاثة بيادق. كيف يعتقدون أنه سيخسر؟ لا يمكن أن يخسر. أم يمكن أن يخسر فعلاً؟ هل يخطئ التقدير؟ هل ضعف تركيزه؟ هل يرى الآخرون أكثر مما يراه؟ يفقد جان الثقة. ربما نصب له فخ قاتل سيقع فيه بالخطوة التالية. أين هو الفخ؟ عليه أن يتفاداه. عليه أن يخرج منه. عليه ألا يبيع رأسه بثمن بخس.

أكثر بطءاً، أكثر انتباهاً، أكثر التصاقاً بقوانين الصنعة بدافع الخوف، يوازن، يحسب جان ويقرر أن ينقل حصاناً ويضعه بين الملك والفيل، بحيث يقع الفيل الأسود ذاته تحت رحمة الملكة البيضاء.

يأتي جواب الأسود دون تردد. لا يتوقف الأسود عن الهجوم، بل يقدم المزيد من الإمدادات وبهذا يحمي حصانُه الفيلَ المهدَّد. يهلل الجمهور. والآن تتلاحق الضربات. يأتي الأبيض بفيل ليدعم مواقعه، يدفع الأسود رخا نحو الأمام، يأتي الأبيض بحصانه الثاني، الأسود برخه الثاني. يجرب الطرفان قواهما حول الخانة التي يقف فيها الفيل الأسود، الخانة التي لم

يعد للفيل الأسود أي دور فيها صارت مركز المعركة. لماذا؟ لا أحد يعرف، فالأسود يريد الحال هكذا. وكل نقلة يصعّد بها الأسود أوار المعركة ويقدم ضباطه، تترافق الآن بالتهليل العلني والمدوي، كل نقلة يدافع بها الأبيض عن نفسه مرغما، تحاسب بالتذمر. ثم يفتتح الأسود، من جديد خلافاً لكل قواعد الصنعة، تبادلاً مميتاً. لا يمكن لهكذا مذبحة عنيفة أن تكون في صالح لاعب ضعيف القوى إلا بصعوبة، هكذا ورد في كتاب تعليم الشطرنج. ورغم هذا يبدأ الأسود بالتبادل والجمهور بالتهليل. لم يروا من قبل مثل هذه المذبحة. بلا هوادة يبطش الأسود بالقطع التي له البطش بها، دون أن يعبأ بما يخسره، تتساقط البيادق واحداً بعد الآخر. تتساقط تحت التصفيق العاصف للجمهور الخبير الأحصنة، الرخاخ والفيلة...

بعد سبع، ثماني حملات وحملات مضادة تغدو رقعة الشطرنج مقفرة وتبدو نتيجة المعركة وخيمة على الأسود، فلم يعد له إلا ثلاث قطع، ملك، رخ وبيدق واحد. والأبيض على العكس أنقذ من يوم القيامة، بالإضافة إلى ملكه ورخيه، الملكة وأربعة بيادق. لن يشك أي مراقب يفهم شيئاً من الشطرنج في الجهة التي ستربح المباراة. وفعلاً لم أحد يشك. لايزال الجمهور، كما كان، واثقاً، حتى بعد الكارثة أن بطله سيفوز، هذا ما تشي به الوجوه المتوهجة إثر الهيجان النهم إلى

الصراع. وسيراهنون عليه بكل ثرواتهم ويرفضون مجرد الإشارة إلى احتمال هزيمته رفضاً باتاً.

كما يبدو أن الوضع الكارثي لم يترك في الشاب أيضاً أي أثر. جاء دوره. بمطلق الهدوء يرفع رخه ويحركه خطوة واحدة نحو اليمين. ومن جديد تحل السكينة على الجمهور. وفعلاً تترقرق الدموع في عيون الرجال البالغين ورعا أمام عبقرية اللاعب الشاب، كأنهم يشهدون نهاية معركة واترلو، عندما دفع القيصر بحرسه الخاص إلى المعركة الخاسرة سلفا. هكذا الأسود يدفع بآخر ضباطه إلى الهجوم من جديد.

الملك الأبيض على الخط الأول على G1 وأمامه تصطف ثلاثة بيادق على الخط الثاني، بحيث إن الطريق أمامه مسدودة وسيلقى الموت المحتم إذا تمكن الأسود، كما ينوي، من تقديم رخه بالنقلة التالية إلى الخط الأول.

إن هذا الاحتمال للقيام بكش مات من أشهر وأسخف الاحتمالات، يمكن القول، من أبعد الاحتمالات في لعب الأطفال ولا يعتمد نجاحها إلا على ألا يتكهن الخصم بالخطر الواضح ولا يقوم بإجراءات دفاعية ملائمة، أقواها أثراً هو تقديم أحد البيادق وفتح المجال بذلك أمام الملك للهرب. وقتل ملك لا عب ذي خبرة، بل حتى مبتدئ متقدم، بهذه الحيلة السخيفة أكثر من مجرد استهتار. لكن نقلة البطل أثارت استحسان الجمهور المنذهل، كأنه يرى هذه النقلة للمرة

الأولى. هزوا رؤوسهم إجلالا. طبعا يعلمون إن على الأبيض أن يخطئ خطأً فادحاً كي ينجح الأسود في مسعاه، لكنهم يؤمنون به. يؤمنون حقاً أن جان، البطل المحلي، الذي غلبهم جميعا، الذ ي لا يسمح بأي ضعف، يؤمنون أن جان سيقع في خطأ المبتدئين. بل إنهم يرجون هذا. هم يتحرقون إليه. يصلون في داخلهم، أحر الصلوات أن يرتكب جان هذا الخطأ.

وجان يتأمل. يهز رأسه منفكراً، يوازن، كما هي عادته، كل الاحتمالات، يتردد من جديد ومن ثم تتقدم يده المرتعشة، المزروعة بعلامات الشيخوخة، ترفع البيدق عن G2 وتضعه على G3.

تدق ساعة برج (سانت سوليس) الثامنة. مضى لاعبوا الشطرنج الآخرون في حديقة لوكسمبورغ لتناول المشهيات منذ زمن بعيد. أغلق صاحب كشك تأجير رقع الشطرنج محله منذ زمن بعيد. فقط وسط السرادق مازال جمهور المشاهدين واقفين حول مصارعين. ينظرون بأعين مفتوحة على آخرها إلى رقعة الشطرنج، حيث يختم بيدق أبيض صغير على الهزيمة النهائية للملك الأسود. ولا يصدقون. يزيحون أنظارهم المحلقة عن المشهد الكئيب على الرقعة إلى قائد الحرب، الذي يجلس شاحباً، منتفخاً وجميلاً وساكناً في كرسي الـ[illegible]ـهفة. وتقول أنظارهم: «أنت لم تخسر. ستأتي الآن

بالمعجزة. أنت تنبأت بهذا الوضع منذ البداية. نعم، بل إنك أردته هكذا. ستقضي الآن على الخصم. كيف! لا نعرف. لا نعرف أي شيء على الإطلاق، نحن اللاعبون العاديون. لكن أنت صاحب المعجزات، لك أن تتم المعجزة. ستتم المعجزة. لا تخذلنا. إننا نؤمن بك. أتمم المعجزة، يا صاحب المعجزات. أتمم المعجزة واربح».

الشاب جالس وصامت. يدير السيكارة بالإبهام إلى قمة السبابة والوسطى، ثم يدسها في فمه. يشعلها. يسحب نفساً. ينفخ الدخان فوق رقعة الشطرنج وعبر الدخان يمد يده، يتركها برهة لتحوم عبر الملك الأسود، ثم ينقره ليسقط.

إن ضرب الملك ليسقط إشارة على الهزيمة علامة من أسوأ العلامات وأكثرها ابتذالا. كأن أحدهم يخرب المباراة بكاملها بعد انتهائها. ويصدر صوت شنيع، عندما يصطدم الملك الساقط بالرقعة. تؤلم هذه الحركة قلب لاعب الشطرنج أي إيلام.

بعد أن ينقر الشاب الملك برأس إصبعه محتقراً، ينهض، لا يشرف لا خصمه ولاجمهوره بنظرة، لا يحيي ويذهب.

يقف الجمهور مبهوتاً، مخجلاً، وينظر محتاراً إلى رقعة الشطرنج. بعد برهة يتنحنح الواحد والآخر، يدق الأرض بقدمه، يتناول سيكارة. كم الساعة الآن؟ معقول! الثامنة

والربع؟ يا إلهي، تأخرت كثيراً. إلى اللقاء. سلام جان. يدمدمون بالأعذار ويختفون سراعا.

وحيداً يظل البطل المحلي. يعيد الملك الساقط إلى مكانه. يجمع القطع في علبة صغيرة. يبدأ بالقطع المأكولة وينتهي بالباقية على الرقعة. وبينما يقوم بهذا، يستعيد في ذاكرته، كما هي عادته، خطوات المباراة ومواقعها. لم يخطئ أي خطأ، طبعا لن يخطئ. ورغم هذا يبدو له أنه لعب أسوأ لعب في حياته. حسب سير المباراة، كان عليه أن يعمل كش مات منذ النقلات الأولى. فمن يقوم بنقلة بائسة على غرار التضحية التكتيكية بالملكة لاعب شطرنج مغفل، ودرج جان على الانتهاء من هكذا أغرار بسرعة ودون شك بالنفس، برحمة أو دون رحمة، حسب المزاج، لكنه لم يكتشف هذه المرة ضعف خصمه الحقيقي بالسرعة المطلوبة. أم أنه كان جبانا؟ لم يجرؤ على الحكم السريع على المحتال المغفل. بل وحاله أسوأ. فهو لم يبغ تصور خصمه بائساً إلى هذه الدرجة. والأسوأ أنه آمن حتى نهاية الصراع أنه ليس نداً للمجهول. لاح له أن ثقته العالية بنفسه، عبقريته وقدسيته لا تقهر. ولهذا لعب لعباً أكثر حذراً. وكل هذا غير كاف، فإذا رام الحقيقة، عليه أن يعترف أنه أعجب بالغريب على غرار الآخرين، بل وتمنى أن يغلبه الآخر، وأن يلحق به الهزيمة، التي مل من انتظارها منذ سنوات

وسنوات، بأكثر الطرق روعة وعبقرية ويحرره أخيراً من عبء أن يكون الأقوى وأن يكون عليه التغلب على الآخرين، حتى يجد جمهور النظارة اللؤماء، هذه العصبة الحسودة، الراحة أخيراً، حتى تهدأ النفوس أخيراً، وأخيراً. . .

لكنه عاد وربح. ويثير فيه هذا النصر اشمئزازاً أكثر من كل شيء آخر في سيرة حياته. فلكي يتجنبه أنكر طوال مباراة شطرنج ذاته وأهانها وجرد أسلحته كلها بوجه أبأس لخمة في العالم.

لم يكن جان، البطل المحلي، رجلا يعبأ بالعبرة الأخلاقية، غير أنه عندما جر ساقيه إلى البيت متأبطا رقعة الشطرنج، حاملا علبة القطع في يده، تبين أنه هزم اليوم هزيمة نهائية ونكراء، لأنه ليس لها مباراة رد اعتبار ولأنها لا تعوض بأي نصر مستقبلي، مهما كان لامعاً. ولذا قرر، هو الرجل الذي لم يكن قط صاحب قرارات عظيمة، أن يكف عن لعب الشطرنج نهائياً.

وفي المستقبل، سيلعب، مثله مثل كل المتقاعدين، لعبة الـ«بوله»، اللعبة البريئة، لطيفة المعشر، ذات المتطلبات الأخلاقية الضئيلة.

وصية المعلم موسارد

«منشغلاً بلا انقطاع باكتشافاته الشاذة، يتوقد موسارد توقداً على أفكاره، بحيث أنها تكاثفت في النهاية في رأسه على شكل منظومة، أعني حماقة، وإن لم يكن لسعود عقله، فلنحرس أصدقائه، الذين أحبّوه وقدّروه، لو يأتي الموت ليخطفه منهم بالمرض النادر والوبال».

جان جاك روسو، «الاعترافات»

هذه الوريقات القليلة موجهة إلى قارئ مجهول مني وإلى جيل لاحق، يملك الشجاعة ليبصر الحقيقة في عينها والقدرة على أن يتحملها. لتهرب الأرواح الصغيرة من كلماتي كالنار، فأنا لست بصدد سرد المجاملات. عليّ أن أوجز الكلام، لأني لا أملك من الوقت إلا قليلاً، فتدوين جملة واحدة يكلفني جهداً يوصف بأن طاقة الإنسان لا تسعه. ولما بذلته إن لم تدفعني الضرورة لإشراك العالم بعلمي وبما أوحي إلي.

يسم الأطباء المرض الذي أعانيه، ولا يعلم علته الحقيقية إلاي أحد، بالشلل التصدفي ويتبدى في شلل يتفاقم جارفا أعضائي وأجهزتي الداخلية. يضطرني لأجلس في فراشي

مسنوداً من الوسائد ولأحبر القرطاس الموضوع على الغطاء بيسراي، فاليمنى غير قادرة على الحراك كليا. بقلب الأوراق يتكفل (مانيت)، خادمي الأمين، الذي كلفته أيضاً برعاية تركتي. أكتفي منذ ثلاثة أسابيع بتناول الغذاء السائل، غير أن ابتلاع الماء ذاته يبعث فيّ منذ يومين ألما لا يطاق. لكن علي ألا أطيل المكوث عند توصيف حالتي الآنية، إنما يجب علي أن أصب البقية الباقية من قدراتي في الكلام على اكتشافاتي. ولكني أود أن أعرج قبلها بكلمة على شخصي.

اسمي جان جاك موسارد. ولدت في ١٢ آذار (مارس) ١٦٨٧ في جنيف. كان والدي اسكافيا. إلا أني وبخلافه شعرت في قرارة نفسي ومنذ باكورة عمري أني منذور لمهنة أنبل ودخلت مسلك صياغة الذهب. بعد بضع سنين نجحت في امتحان الصناعة. كان مشروع تخرجي، لسخرية القدر، ياقوتاً أحمر محاطاً بصَدَفة ذهبية. بعد تجوال عامين، رأيت في بحرهما جبال الألب والبحر وما بينهما من السهوب الشاسعة، أغرتني باريس حيث حططت الرحال ووجدت عملا لدى معلم الصياغة لامبير في شارع فيروليه. بعد وفاة المعلم لامبير الباكرة أدرت مشغله بالوكالة، نكحت زوجه بعد عام وحصلت بهذا على شهادة المعلم وحقوق النقابة. تمكنت خلال العشرين عاما التالية من جعل المصاغة المتواضعة في شارع فيروليه أكبر وأفخم محلات الجواهر في باريس. كان زبائني من أشراف

أسر البلاد، من أقرب المقربين إلى الملك. وجدت خواتمي، مشابكي، حليي، وتيجاني طريقها إلى هولندا، إنكلترا، الرايخ الألماني، وعبرت بعض من الرؤوس المتوجة عتبة داري. في عام ١٧٣٣، بعد مرور عامين على وفاة زوجي الحبيبة، مُنحت كنية صائغ بلاط دوق اورليان.

ترك الاتصال بأشرف دوائر مجتمعنا أثراً بالغاً على انطلاقة قواي الذهنية وثقافتي الشخصية.

تثقفت بالمناظرات التي حضرتها، تثقفت بالكتب، التي ضحيت في سبيل قراءتها بكل ساعة فراغ. وبمرور عشرات الأعوام أهلت لنفسي بهذه الطريقة معارف عميقة عن العلوم، الآداب، الفنون واللغة اللاتينية، بحيث يسعني أن أصف نفسي بالرجل المتعلم دون خيلاء، رغم أني لم أزر مدرسة عليا أو جامعة. ترددت على جميع الصالونات المهمة كما وقرت من ناحيتي أشهر عقول عصرنا في داري. ديدرو، كونديلاك، دالامبير، جلسوا إلى مائدتي. ستظهر مراسلاتي على مدار سنين مع فولتير في تركتي. بل حتى روسو، النافر، كان في عداد أصدقائي.

أنا لا أتطرق بالذكر إلى هذه الوقائع لأثير إعجاب قارئي مثلا، هذا إن قرأ أحد هذه الوريقات، بتسطير أسماء مشهورة. بل أود أن أقف شديد الوقوف بوجه مأخذ قد يؤخذ علي إذا كشفت الحجاب عن اكتشافاتي وعلومي الخارقة، ألا وهو أني

مجنون بائس يجب ألا تحمل أقواله على محمل الجد، لأنه ليس له أي معرفة بالفلسفة ووضع العلوم في زمننا هذا. أولئك الرجال شهود على جلاء عقلي وقدرتي على الحكم. لمن آمن إذن، أن عليه ألا يحملني محمل الجد، لن أقول له إلا، من أنت، أيها الصديق، لتدحض رجلا اعتبره عظماء عصره قرينا لهم؟

جعلني توسيع مشغلي وأعمالي رجلا ذي ثراء، إلا أني كلما ازددت عمراً، كلما قل عندي إغراء الذهب والماس وكلما ازددت تقديراً للكتب والعلوم. وهكذا قررت أن أعتزل حياة المال قبل عامي الستين وأقضي بقية أيامي في تفرغ وثراء آمن بعيداً عن ضجيج العاصمة. ولهذه الغاية اقتنيت قطعة أرض قرب باسي وشيدت داراً رحبة واستزرعت حديقة تحوي كل أصناف أشجار الزينة وأحواض الزهور، أشجار الفاكهة وكذلك دربا من الحصى نظيفة وبعضا من نوافير الماء. عزلت كل هذا بسياج من شجر الزان عن بقية العالم وبدا لي في وضعه الناعم والساكن أعز مكان لرجل يرغب في دس فترة من السكينة بين ثنايا غموم الحياة والموت. في ٢٢ أيار (مايو) ١٧٤٢، في سن الخامسة والخمسين، شددت الرحال من باريس إلى باسي لأنزل في الدار الجديدة.

آه. إذ أتذكر اليوم ذلك اليوم الربيعي الذي وصلت فيه ملء السعادة وملء الفرح إلى باسي، إذ أفكر في تلك الليلة الأولى،

التي لذت فيها بالسرير للمرة الأولى في العمر دون الانتظار المقبض لصباح من الأعمال والمواعيد، من العجلة والهموم، إذ أفكر في النوم لا يرافقه إلا حفيف أوراق الشجر الرقيق في حديقتي الخاصة، كيف رقدت هنيئا في الوسائد، التي أجلس بينها الآن متحجراً. لا أعلم إن كان علي أن ألعن ذلك اليوم أم أن أباركه. فمذاك هلكت شيئاً فشيئاً حتى وصلت إلى هذه الحال التي تدعو إلى الشفقة. لكن ومذاك انكشفت لي الحقيقة أيضاً شيئاً فشيئاً، حقيقة مبدأ ومجرى ومنتهى حياتنا، دنيانا، كوننا بأجمعه. إن وجه الحقيقة مرعب ومرآه مميت كمرأى رأس المبدوزا. لكن من وجد الطريق إليها، بحكم الصُدفة أم نتيجة البحث الدائم، لا بد أن يمضي فيه إلى نهايته، حتى لو كان لن يجد بعدها السكينة ولن يجد المواساة، وحتى لو لم يشكره أحد عليه.

في هذا المكان، قارئي المجهول، قف وتمعن قبل أن تداوم القراءة. هل أنت قوي كفاية لتتناول أهوال الحقيقة؟ ما أقوله لك لم يسمع له مثيل وإذا ما فتحت عينيك، فإنك ستبصر عالماً جديداً ولن يعود بمقدروك رؤية القديم. لكن هذا العالم الجديد سيكون قبيحاً ومقبضاً وخانقاً. لا تنتظر أن يبقى لك أمل ما، مخرج ما، أو مواساة، إلا مواساة معرفة الحقيقة وأن هذه الحقيقة، هي الحقيقة النهائية. لا تثابر على القراءة إذا كنت تخشى الحقيقة. ارم هذه الوريقات إذا كنت ترتعب أمام

المطلقات. اهرب من كلماتي إذا كنت تميل إلى صفاء روحك. الجهل ليس عاراً، بل إنه سعادة لأغلب الناس بيننا. والحق إنه السعادة الوحيدة الممكنة في هذا العالم. لا تتخل عنه طائشاً.

لك أقول ما لن تنساه قط، لأنك تعرفه في باطنك، كما كنت أعرفه، قبل أن يوحى به إلي. إلا أننا عفنا الإقرار به والتطرق إليه. أقول: العالم صَدَفة تنغلق على نفسها دون رحمة أو شفقة.

أتعوف؟ أتمتنع عن الإعتراف؟ لاعجب. لقد كانت الخطوة واسعة جداً عليك. ليس بوسعك قطعها دفعة واحدة. الضباب العتيق كثيف جداً، ليكفي ضوء ساطع وحيد لتفريقه. علينا أن نوقد آلاف الأضواء. أكمل لك حكايتي وأشركك بهذه الوسيلة في الكشف على مهل، الكشف الذي حلّ فيّ.

تحدّثت عن الحديقة المحيطة بمنزلي. يقيناً كان متنزهاً صغيراً تتوافر فيه أصناف كثيرة من الزهور والأعشاب والأشجار النادرة، إلا أني سعيت لأزرعه بالدرجة الأولى بورود عادية، لأن مشهد الورود المتفتحة أثار في دائماً انطباعا عن الرقة والبهجة. وأنشأ الجنائني، الذي تركت له مطلق اليد في إنشاء الحديقة، حوض ورود واسعا أمام صالوني الواقع غربا. كان الرجل الطيب يريد أن يفرح قلبي بذلك. وأنى له أن يعلم إني،

رغم لهفي إلى رؤية الورود، فإني لا أرغب أن تضيق علي وتتكاثر حولي. وهكذا لم يكن له أن يعلم أن نهاية آخر عصور تاريخ البشرية بدأت مع بداية إنشاء حوض الورود. فقد كان الأمر مع الورود أنها لم تشأ أن تنمو بأي ثمن. ظلت الأعشاب ضئيلة شقية. جف كثيرها رغم الروي المستمر وبينما تزهر بقية الحديقة، لم تتفق سيقان شجرات الورود عن البراعم. تحدثت بهذا الشأن مع الجنائني، لكنه لم يجد حلا سوى إزالة التراب من الحوض، ملئه بتراب جديد وإعادة استنباته. لكن كل هذا بدا لي معقداً جداً ولأني في سري لم أشعر بالسعادة لقرب الورود، أشرت بإزالة التراب عن الحوض نهائياً وتشييد شرفة مكانه، حيث سيرفرف البصر منها، إذا خرجت من الصالون، على أنحاء الحديقة ويستمتع مساء بأجمل ساعات الغسق. تملكتني هذه الفكرة، بحيث قررت تنفيذها بيدي.

بدأت باستئصال شتلات الورود وحفر الأرض لأملأ الحفر فيما بعد رملا وحصى أساساً للبلاط. لكن وبعد عدة ضربات لم أعد أحفر تراباً مرناً، بل وصلت إلى طبقة شيباء قصيفة عسرت علي الحفر. استعنت بفأس لأفتت به الصخر الأبيض الغريب. فكان يتفتت ويتضعضع تحت ضربات الفأس في تتلات صغيرة لي أن أرفعها بالمجرفة. لم يوسع الصخر الجديد حدود اهتمامي بعلوم المعادن إثر الضيق من زيادة العمل التي سببها لي إزالة الصخر، حتى وقع بصري بغتة على

المجرفة المحملة على آخرها في اللحظة إذ سحبتها لأرمي ما فيها بعيداً. رأيت صخرة بحجم قبضة اليد على مغرفة المجرفة وعلى حافته يلتصق شيء له صياغة دقيقة. وضعت المجرفة جانبا، تناولت الصخرة وعرفت لدهشتي أن الشيء ذو الصياغة الدقيقة على طرف الصخرة صَدفة متحجرة. للفور توقفت عن العمل ودخلت المنزل لأفحص لقيتي. بدت الصَدفة على حافة الحجر متنامية معه ولا تكاد تتمايز عنه في اللون إلا في أطيافها بين الأبيض والأصفر والرصاصي بفضل تعريجاتها المجوفة، التي تتشعب، عميقة هنا، مرتفعة هناك. كانت تقريبا بحجم قطعة لويزدور، وتشبه في مظهرها تماما الصدف الذي نجده بحذاء سواحل النورماندي وبريتانيا والذي يظهر على موائد غدائنا وجبة مشتهاة. عندما حككت الصدفة بسكين وفصلت زاوية صغيرة من قشرها وجدت أن المنطقة المكشوفة لا تتميز بشيء عن أي منطقة مكشوفة في الصخرة. هرست الجزء المنحوت من الصَدفة في هاون وهرست قطعة منحوتة من الصخرة في هاون آخر وحصلت في المرتين على المسحوق الأبيض الأشيب ذاته، الذي بدا بعد مزجه بعدة قطرات ماء كالصباغ الذي يستخدم في تبييض الجدران. لم أكن أعلم حتذاك تماما أن الصخور والصدف يتكونان من العنصر ذاته، لم أكن أعلم آنذاك تماماً جسامة هذا الاكتشاف الذي يجعلني أرتعد حتى اليوم. بهرت جداً بالندرة الموهومة للقيتي، آمنت جداً

بمصادفة من مصادفات الطبيعة، فلم يكن لدي تصورات أخرى. لكن هذا سيتغيّر في الحال.

بعدما فحصت صَدَفتي فحصاً دقيقاً، خرجت من جديد إلى حوض الورود لأرى إن كنت سأعثر على المزيد منها. لم يكن علي البحث طويلاً، فمع كل ضربة فأس، مع كل رمية مجرفة، كشفت المزيد من الصدف الصخري. وحيث تفتحت عيناي للحقيقة اكتشفت المزيد والمزيد من الصَدَف، حيث افترضت تواجد الحجر الرملي. وفي بحر نصف ساعة عددت مائة صَدَفة، وتوقفت بعدها عن التعداد، لأن عيناي لم تكفيا لرؤية كلها.

ملأني إحساس غامض، لم أجرؤ على الإقرار به، إحساس لا بد أنه بدأ ينتش فيك أنت أيضاً قارئي المجهول. مضيت حاملاً مجرفتي إلى الناحية الأخرى من الحديقة وحفرت فيها أيضاً. في البداية لم أجد إلا التراب والطين، لكنني وجدت على عمق نصف متر الصخر الصدفي. حفرت في مكان ثالث، في رابع، حفرت في مكان خامس وفي سادس. وفي كل الأنحاء، أحياناً منذ ضربة المجرفة الأولى، أحياناً على أعماق أكثر، في كل الأنحاء وجدت صدفا، وجدت صخر الصدف، رمل الصدف.

في الأيام والأسابيع التالية قمت بجولات علمية في محيطي. بدأت بالحفر في باسي، ثم في بولونيا وفرساي، بالنتيجة حفرت في كل بقاع باريس، من سان كلود حتى

فانسين، من جانبي حتى مونمورنسي حفراً منهجياً، دون أن أفشل مرة واحدة في بحثي عن الصدف. وحيث لم أجد صدفا، وجدت رملاً أو صخراً، يتوافق مع الصَدَف من حيث عنصره. وبينما وجب علي أن أحفر في شارينتون، تحت أنظار حراس المأوى المرتابة، حفرة بعمق خمسة أمتار، قبل أن أعثر على شيء، توافر الصَدَف على سطح الضفاف الحجرية بأعداد كبيرة في مجاري نهري السين ومارن. أخذت نماذج عن الصَدَف وعينات من الصخور المحيطة بها من كل مكان حفرت فيه إلى البيت، حيث أخضعتها إلى اختبار دقيق. كانت نتيجة هذا الاختبار نتيجة الاختبار الذي أخضعت له صدفتي الأولى نفسها. لم يتمايز مختلف الصَدَف الذي جمعته إلا في الحجم وبصرف النظر عن تكوينه لم يتمايز حتى عن الصخر الذي التحم معه. وهكذا وضعتني نتيجة اختباراتي واستكشافاتي أمام سؤالين رئيسيين، خشيت من جوابهما، مقدار ما تشوقت لمعرفتهما.

السؤال الأول: إلى أي مدى ينتشر الصخر الصَدَفي تحت الأرض؟

والسؤال الثاني: كيف ولماذا تكون الصَدَف، لأقل بكلام آخر، ما الذي دعا قطعة صخرية غير متبلورة أو على كل حال متشكلة تشكيلاً تعسفياً، لتأخذ الهيئة الرائعة لصَدَفة؟

أتمنى على قارئي المجهول ألا يقاطعني في هذا المكان هاتفا إن أرسطو العظيم سبق وأن أعمل فكره في هذه المسائل وإن توافر الصخر الصَدَفي ليس اكتشافاً مبتكراً ولا حديثاً، إنما ظاهرة معروفة منذ آلاف السنين. ولا يسعنا رداً على هذا الهتاف إلا القول، رويدك، رويدك، صديقي، رويدك.

إني لا أزعم قط إني أول رجل يعثر على صَدَفة صخرية. فكل من سار بعينين مفتوحتين في أحضان الطبيعة فلا بد وأنه عثر على واحدة منها. المسألة أن ليس كل من رأى صَدَفة فكر فيها، كما أن أحداً لم يتعمق في شأنها حتى الآن كما فعلت أنا. من البديهي أني كنت أعرف، وما زلت، أعمال الفلاسفة الإغريق عن نشوء كوكبنا، القارات، السهوب وهلم جراً، حيث تتوافر فيها براهين على الصَدَف الصخري. بعدما أتيت على نهاية القسم العملي لأبحاثي، أحضرت من باريس كل كتاب يسلط نوراً خافتاً على معضلة الصَدَف. سرت في أرجاء كل الأعمال عن الفلك، الجغرافيا، المعادن، المناخ، الكونيات وجميع المجالات القريبة منها. قرأت كل التصانيف التي تذكر الصَدَف من أرسطو حتى البرتو ماغنوس، من تيوفراست حتى غروسيتيست، من ابن سينا حتى ليوناردو.

واستنتجت أن هذه العقول العظيمة، ورغم أنها تتمتع بالعلم الشامل عن توافر الصدف، عن هيئاته، أشكاله، انتشاره إلى

آخره، إلا أنهم جميعا يخيبون الظن في تفسير أصل الصَدَف، تفسير كينونته الجوانية وقدره الأصلي.

تمكنت بعد دراسة الكتب من الجواب على السؤال الأول عن مدى انتشار الصَدَف على الأقل. وسيراً على المبدأ القائل ليس على المرء الإبحار في كل العالم ليعرف أن السماء زرقاء في جميع الأصقاع، خمنت أني سأجد الصَدَف حيثما حفرت حفرة بحثا عنه. وهكذا قرأت عن لقى الصَدَف ليس فقط في أوروبا وآسيا الواسعة، ليس فقط في ذرى الجبال الشامخة ووديان الأنهار السحيقة، بل وأيضاً عن حوّار الصَدَف، صخر الصَدَف، وصَدَف متكامل عثر عليه في القارات المكتشفة حديثاً شمال وجنوب أمريكا. بهذا ثبت لدي ما خشيته أثناء تنقيباتي في باريس، ألا وهو أن الصدف والمواد الشبيهة بالصَدَف تقوض مجمل كوكبنا. ما نعتبره الكينونة الرئيس لأرضنا، المروج والغابات، البحيرات والبحار، الحدائق، المزارع، الأرض اليباب والأرض الخصب، كل هذا ليس سوى رداء لطيف، إلا أنه خفيف، يحيط بنواة هشة. إذا أزاح المرء هذا الرداء الرقيق سيبدو كوكبنا ككرة بيضاء شيباء متألفة من ألوف مؤلفة من الصدف الصخري بحجم لويزدور. والحياة لن تعود ممكنة على هكذا كوكب.

قد نعتبر اكتشاف أن الأرض تتألف في جوهرها من الصَدَف طرفة لا وزن لها، إن كان يتعلق بحالة منعزلة وغير متبدلة،

لكن الأمر للأسف ليس بهذه البساطة. توصلت دراساتي الشاملة، التي لن أذكر سيرها بالتفصيل هنا لضيق الوقت، إلى أن تصدُّف الأرض صيرورة تتقدم بخطوات سريعة، عملية لا يمكن إيقافها. ففي يومنا هذا صار الرداء الترابي للعالم في مشارق الأرض ومغاربها مهلهلا وواهيا. تآكل وقرضته العناصر الصَدَفية في مواقع كثيرة، حتى في يومنا هذا. فإننا نقرأ لدى القدماء عن جزيرة سيسيليا، عن ساحل افريقيا الشمالي، عن شبه الجزيرة الايبيرية كأخصب سهوب العالم القديم وأكثرها بركة واليوم يغطي تلك البقاع، عدا استثناءات نادرة، الغبار والرمل والحجر وهذه ليست إلا مرحلة ابتدائية لنشوء الصَدَف. ويجوز هذا أيضاً على القسم الأعظم من ديار العرب، على النصف الشمالي لافريقيا وكما نعلم من التدوينات الحديثة على بعض أجزاء أمريكا التي لا نعرفها بكليتها بعد. وحتى في بلادنا أيضاً، التي نعتبرها على وجه الإجمال بلاداً مميزة بين البلدان، يمكن إقامة الدليل، على التصدُّف المستمر. يقال مثلا إن رداء الأرض في أجزاء من الأقاليم الغربية وجنوب جبال السيفين اختزل في سمك اصبع واحد وإجمالا فإن مساحة سطح الأرض التي غزاها الصَدَف تزيد عن مساحة أوروبا كثيراً.

يكمن سبب الازدياد المستديم للصَدَف والمادة الصدفية في عدم القدرة على تعطيل دورة المياه. فعلى غرار الصَدَف المعروف، الذي يعيش في مياه البحر، يبرهن الصَدَف الصخري

أيضاً على أن الماء حليفه القوي، بل يكاد يكون عنصره الذي يعيش فيه. كما يعلم كل مثقف، فإن الماء يدور دورة أبدية، بأن يصعد مدفوعاً بشعاعات الشمس عبر الحدود ويتجمع في غيمات تحملها الرياح مسافات بعيدة، تفتح أوعيتها فوق القيعان وتصب الماء على الأرض بشكل قطرات المطر. وهناك تروي وتتغلغل في الأرض حتى أصغر فتيتة فيها، ثم يتوحد في ينابيع وسيول ويتدفق في جداول وأنهار تسعى بالنتيجة لتصب في البحر. يساهم الماء بقسطه المشؤوم في تشكيل الصَدَف في مرحلة تسرب الماء إلى مفازات الأرض. فهو يحللها رويداً رويداً أثناء تغلغله، يفتتها بمعنى الكلمة ويجرفها جرفا. وعليه يتسرب الماء أعمق حتى يصل طبقة الصخر الصَدَفي وهناك يرشح النسج الضرورية لتشكيل الصَدَف، المأخوذة من التراب. وبهذه الوسيلة يغدو رداء الأرض أرق فأرق، بينما تنمو طبقة الصخر الصَدَفي دون عوائق. وسينال الراغب تأكيداً على اكتشافي هذا، إذا أخذ ماءاً عادياً من بئر ورشحه في إناء. تتشكل على قعر الإناء وجدرانه ترسبات بيضاء. وقد تشكل الرسوبيات قشوراً سميكة جداً في الآنية التي استخدمت طويلاً لترشيح المياه. إذا رفع المرء القشرة وهرسها في هاون سيحصل على نفس المسحوق الذي يحصل عليه بهرس الصَدَف الصخري. وإذا قمت بالتجربة ذاتها مع ماء المطر، لن تحصل بأي حال من الأحوال على الترسبات.

لابد أن قارئي المجهول يعي الآن الوضع البائس الذي يتواجد فيه العالم: الماء الذي لا نستطيع الحياة دونه يوماً واحداً يدمر أساس حياتنا، الأرض، ويسلمنا بيد عدونا الأخبث، الصَدَف الصخري، هنا لا محيص ولا معاد من تجيُر العنصر المانح للحياة، التراب، إلى عنصر قاتل للحياة، حجري، مثل تحول التنوع في الأشكال إلى شكل صَدَفة وحيد أوحد. فلا تتخيلن إذن خيالات خاطئة عن نهاية العالم. فلا نهاية إلا التصدُف الكامل، بيد أن هذه النهاية يقين مثل شروق الشمس وغروبها، ومثل انتشار الضباب وهطول المطر. أما كيف ستكون نهاية هذه النهاية، فسأسهب في شرحها لاحقاً. فعلي أولا أن أعارض الاحتجاجات التي ستوجه إلي والتي أتفهمها كل التفهم. فليس من إنسان يرغب في رؤية الروع، ثم إن الخوف يولد آلاف التساؤلات. الفيلسوف وحده ينظر إلى الحقيقة في عينها.

لقد أشرت سالفا باختصار شديد إلى بؤس الفشل الذي يصاب به فلاسفتنا الموقرون بشأن تفسير ظهور الصَدَف. يذهب بعضهم مذهب الطيش ويزعم أن الصَدَفيات ليست إلا مصادفة من مصادفات الطبيعة التي شاءت صباغة الصخور على شكل صَدَف. لا بد أن هذا الشرح السطحي والمريع، كما يمهد له بعض المؤلفين الإيطاليين حتى يومنا هذا، سيبدو لكل عاقل مضحكا وغير علمي، بحيث أوفر علي جهد التطرق إليها.

يقول الرأي الآخر، الذي يحمل على محمل المزيد من الجد والذي يقول به أيضاً فلاسفة أكبر، إن الأرض كانت مغمورة بالبحر في الأزمان الغابرة وإن الصَدَف الحي ظل في كل مكان على الأرض عند تراجعه. وقرينة على زعمهم يرتكز أولئك العلماء على تصوير الطوفان في التوراة، حيث ورد فعلاً أن الأرض جميعا غمرت بالطوفان حتى أعلى القمم. بقدر ما يبدو هذا التفسير للجاهل مقنعا، علي أنا كعالم أن أتصدى له وسع جهدي. لنا أن نقرأ في كتاب موسى أن الطوفان دام ٣٧٠ يوماً على الأرض وأن ذرى الجبال، حيث لا يقل توافر الصَدَف عن الأرض السهلة، لم تغمر بالماء إلا ١٥٠ يوماً. وإني لأتساءل كيف لطوفان لم يدم إلا قصيراً أن يخلف كماً هائلاً من الصَدَف كما نراه اليوم؟ وعلاوة عليه فلابد أن عوامل الطقس كانت ستحت الصَدَف الذي تركه الطوفان منذ آلاف السنين وتطحنه رملا. وحتى لو كان قد حافظ على نفسه بطريقة غامضة، فلا أحد يستطيع أن يفسر لماذا يتكاثر على الدوام كما توثقنا من هذا. وهكذا نرى أن كل التفسيرات والشروح حول كينونة الصَدَف تفتقر إلى أساس قوي، خلاف تفسيري.

علمنا حتى الآن أن الشكل الخارجي لأرضنا معرضة إلى استحالة دائمة من تنوع العناصر إلى عنصر الصَدَف. والآن يحق لنا الظن بأن التصدُّف مبدأ جامع لا تخضع له هيئة الأرض الظاهرية وحدها، بل وأيضاً كل الحيوات الأرضية، كل شيء وكائن على الأرض، بل وفي الكون أجمع.

كانت نظرة ألقيتها عبر المنظار المقرب أقنعتني أن أقرب جيراننا في الفضاء، أعني القمر، أفضل مثال على تصدُّف الكون، إلا أنه في الحقيقة بلغ مرحلة تنتظرها الأرض، ألا وهي التحجُّر الكلي والنهائي لجميع العناصر إلى عنصر الصَدَف. طبعا يوجد فلكيون، حتى في البلاط، يزعمون أن القمر كوكب مضياف بهضاب مشجرة ومروج رطبة، ببحيرات كبيرة وبحار. كلا، ليس كما يذكرون. ما يحسبه أولئك الأغرار بحاراً صحارى شاسعة من الصَدَف، ما يرسمونه في خرائطهم عن القمر جبالاً بواد قفراء من صخور الصَدَف. والأمر ذاته يسري على الكواكب الأخرى. وستؤكد الأجيال اللاحقة المزودة بعقول ومناظير أكثر حدّة رؤاي.

أكثر فزعاً من تقوقع الكون، هو تحوّر جسدنا المستمرّ إلى عنصر الصَدَف. وهذا التحور قوي ومستديم بحيث يقود كل إنسان إلى الموت المحتم. وبينما يتألف الإنسان لدى التلقيح، إن جاز لي القول، من عليقة من النخامة، صغيرة، لكنها رغم هذا خالية تماماً من عنصر الصَدَف. فإنه يكوّن عند النمو في بطن الأم ترسبات منه. وتكون هذه الترسبات بعيد الولادة مرنة وسلسة، كما يثبت لدينا عند ملامسة رأس الوليد. لكن وبعد وقت قصير فإن تصيُّر الجسد الصغير عظما، تكوّن القشور

حول المخ والتضييق عليه بكبسولة صلبة صخرية، يتعاظم بحيث يأخذ الطفل هيئة متصلبة نوعاً ما. يهلل الأبوان ويريان فيه الآن إنسانا حقيقيا. إنهم لا يعون أن طفلهم، حالما يبدأ المشي، يصيبه الصَدَف ويترنح متماهلاً نحو نهايته الأكيدة. إلا أن الطفل والحق يتواجد في حالة يحسد عليها، إذا ما قارناه بإنسان هرم. فإن تحجر الإنسان يبدو للعيان أكثر مع تقدمه في العمر، فجلده يتقشر، شعره يتقصف، تتكلس عروقه وقلبه ومخه، ينحني ظهره، يتكور شكله ويتقبب حسب البنيان الداخلي للصَدَفة ويسقط أخيراً في القبر ككومة خرائب تعيسة من صخر الصَدَف. لكنه لا ينتهي بهذا. فإن المطر ينهمر، تتسرب القطرات في الأرض ويقرضه الماء ويفتته إلى أجزاء بالغة الصغر. يحملها إلى طبقة الصَدَف، حيث يجد أخيراً راحته الأخيرة في شكل الصَدَفة الصخرية المعروفة.

من يتهمني هنا بأني أهلوس أو أزعم أشياء تعوز البرهان، أسأله ألا تلحظ في نفسك كيف تصير عظما من عام لعام، كيف تقل قدرتك على الحركة، كيف تجف في النفس و البدن؟ ألا تعرف بعد، كنت تتقافز في طفولتك، تدور، تلف، تسقط عشرات المرات في اليوم وتنهض عشرات المرات في اليوم كأن شيئاً لم يكن؟ ألا تذكر جلدك الناعم، اللين، القوي؟ ألا تذكر إن طاقة الحياة فيك كانت مطواعة، لكنها في الآن ذاته لا تغلب؟ انظر إلى نفسك الآن! غزت جلدك التجعيدات الثنيات، وجهك مثلم من اعتلال المزاج ومتقلص من الوجع الداخلي، جسدك منصلب وتتأوه، كل حركة تكلفك جهداً، كل خطوة تتطلب منك قراراً، وتتعذب خشية أن تسقط على الأرض وأن تتشظى كإبريق خزفي جاف. ألا تشعر بها؟ ألا تحس بها في كل خلية من خلاياك الصَدَفة داخلك؟ ألا تلحظها تهاجم قلبك؟ لقد أحاطت بقلبك نصف إحاطة. كذاب من يكذب بها.

أنا نفسي أسطع وأبأس برهان على الإنسان المصاب بشلل الصدف. رغم أني أشرب منذ سنوات ماء المطر لأحفظ نمو عنصر الصَدَف في حدود ضيقة قدر المستطاع، بيد أني أصبت به وأصبت به أعظم الإصابة. عندما بدأت قبل أيام عديدة بتدوين تركتي كنت قادراً على تحريك يسراي نوعاً ما بحرية. تحجرت الأصابع في هذه الأثناء بحيث لم أعد قادراً على وضع الريشة بيدي. لأن إملاء تقاريري يمنع علي دون قيد وشرط ويجلب لي الكلام كثيراً من الآلام، علي أن أكتب الآن بمرفقي دافعا يدي جارّها. وهذا التصدُّف السريع سرعة استثنائية، خاصة عندي، ليست مصادفة. فإني قد شغلت ذهني طويلاً بالصَدَف وانتزعت منه كثيراً من أسراره، ليجازيني بنهاية أليمة وعذاب شديد. فرغم أن الاهتمام بالصَدَف سيزداد هيمنة، فإن سلطته تظل سراً يغار عليه وتنتقم له.

ستعجب قارئي المجهول، إذ تسمعني أتحدث عن

الصدف، تلك التشكيلات الجامدة، شبيهة الصخر ظاهريا، كائنات تدخل في علاقة استثنائية مع إنسان معين لتصب عليه نقمتها. ولآخذن بيدك إلى آخر وأفزع أسرار الكائن الصَدَفي، مع أنك بذلك تخاطر بأن تنتهي نهايتي.

منذ مطالع خبرتي بالصَدَف تساءلت لماذا يأخذ صخر يتألف من عنصر الصَدَف شكل الصَدَفة ولا يأخذ شكلا آخر. وكذلك في هذه المسألة الحاسمة لا يشفي الفلاسفة غليلنا. لدى العربي ابن سينا وحده نجد قرينة على طاقة التحور الحجري، غير أنه بدوره لا يستطيع أن يقول لنا من أين تتأتى طاقتها ولا لماذا تتبدى بطريقة محددة، بالنسبة إلى الصَدَف. وأما أنا وبخلافه فقد تيقنت للحال أن خلف التصدّف الكوني لا تكمن أي طاقة ما، إنما تلك الطاقة المحركة للعالم، لا تخضع إلا لمشيئة وحيدة عليا. وبقدر ما تيقنت من وجود هذه المشيئة العليا، لأني قد تعرفت فيوضاتها في الصَدَف الصخري، بقدر ما قل تخيلي للكائن الذي يعبر عن هذه المشيئة. أي كائن هذا الذي يسعى لخنقنا فرداً فرداً، الذي يحيل الأرض صحراءاً ويحول الأرض والسماء إلى بحر من الصَدَف الصخري؟

فكرت سنين وسنين. أحكمت علي صومعتي وأرهقت عقلي. خرجت إلى أحضان الطبيعة لأنال الكشف. ذهبت كل جهودي هباءاً. وأخيراً أود الاعتراف بأني تضرعت إلى ذلك الكائن أن ينكشف لي، بأني توسلت إليه، أني لعنته. لكن لم يحدث شيء. دارت أفكاري في الحلقة ذاتها كما منذ سنوات، أخذت الحياة سيرها المعذب ذاته وخلت أن المسكين موسارد سيلحد بين الصَدَف دون أن يغنم قسطا من الحقيقة النهائية على غرار باقي البشر.

لكن من ثم حدث الحدث النفيس الذي سأرويه لكم الآن، الذي لا أود روايته لأنه حدث في جو يقع فوق أو خارج جو الكلم. وهكذا سأحاول أن أسرد ما يمكن سرده وأصف ما لا يسرد في الأثر الذي تركه علي. بك، أنت قارئي المجهول، الذي اتبعتني حتى الآن، تتعلق قدرتي على إيضاح بغيتي بقسط غير قليل. أعلم أنك ستفهمني، إن أردت أن تفهم.

حدث ذلك في باكورة يوم من أيام الصيف قبل عام. كان الطقس جميلاً وكانت الحديقة في أبهى حللها. كان ضوع الورد سميرًا لي في نزهتي والطيور تغني كأنها تريد إقناع العالم أجمع أنه خالد وأن هذا الصيف ليس أحد آخر فصول الصيف قبل أن يهجم الصَدَف. لابد أن الشمس كانت تميل إلى الزوال، فقد كانت الحرارة عالية. جلست على المقعد في ظل شجرة تفاح لأنال قسطا من الراحة. كنت أسمع من البعيد خرير النافورة. أغمضت عيني إرهاقاً وبغتة بدا لي أن خرير النافورة يعلو ويصير هديراً حقيقياً. ثم حدث الحدث. أسري بي من حديقتي إلى الظلام. لم أكن أعلم أين أنا. حوصرت بالظلام وبقرقرة وهدير عجيبين وأصوات احتكاك وطحن. بدا لي في تلك البرهة أن

هاتين المجموعتين من الأصوات، الخرير المائي والاحتكاك الصخري، هما أصوات خلق العالم، إن جاز لي القول. شعرت بالخوف. وعندما بلغ الخوف أعلى درجاته هويت إلى العمق، ابتعدت الأصوات ثم خرجت عن مجال الظلام. بغتة أحاط بي نور حتى خلت أنه سيعميني. هويت أعمق في النور وابتعدت عن المكان المظلم، الذي تعرفت فيه كتلة مفزعة من السواد فوقي. كلما هويت، كلما شاهدت المزيد من الكتلة وكلما عظمت في عيني. وأخيراً عرفت أن الكتلة السوداء فوقي صَدَفة. فانفلقت الكتلة إلى فلقتين، شرعت جناحيها السوداوين كطائر عملاق، نشرت قشرتي الصدفة عبر جميع الفضاء ونزلت عليّ، على العالم، على كل ما هو موجود وعلى النور وانغلقت عليه. وحل الليل الكلي ولم يبق إلا صوت الطحن والهدير.

وجدني الجنائني ملقيا على درب الحصى. كنت قد حاولت النهوض عن المقعد وانهرت إعياءا. حُملت إلى البيت ووضعت في سريري الذي لم أنهض منه حتى الآن. كنت قد بلغت مبلغاً من الضعف خشي فيه الطبيب على حياتي. ولم أستعد صحتي نوعاً ما إلا بعد ثلاثة أسابيع. ألا أني ومنذ ذلك اليوم بقي لي في معدتي ألم شديد، يتفاقم يوماً إثر يوم ويسري في المزيد والمزيد من مجالات جسدي. وهذا المرض هو مرض الصَدَف الذي يظهر عليّ في أفضل صورة، الذي

يهاجمني أحد الهجوم وأسرعه، الذي يميزني عن بقية الناس، بأني الإنسان الذي رأى الصَدَفة. علي دفع ثمن باهظ على كشفي، لكنني أدفعه راضيا، لأني الآن أملك الجواب على منتهى المسائل: ألا وهو أن القوة التي تجذب كل حياة إلى مدارها وتأتي بكل نهاية، المشيئة العليا، التي تسود الكون وترغمه على التصدّف علامة على الحضور الكلاني والقدرة الكلانية، هي مشيئة الصَدَفة الأزلية العظمى، التي سَرّحتُ من باطنها فترة لأشهد على عظمتها وروعتها البهية. كان ما رأيته خيال نهاية العالم. إذا تفاقم تصدّف العالم إلى درجة يعرف فيها الجميع سلطة الصَدَفة، إذا صرخ البشر فزعا وحيرة لوجه مختلف آلهتهم وتوسلوها الغوث والخلاص، فلن يأتيهم من جواب إلا أن تفتح الصَدَفة العظيمة جناحيها وتغلقهما على العالم وتطحن كل ما هو موجود.

ها قد قلت لك، قارئي المجهول، كل شيء، فهل من مزيد أقوله؟ كيف أواسيك؟ هل أهذر بأن روحك لا تباد، أن ربك غفور رحيم، أن جسدك يبعث، كما يهذر الفلاسفة والأنبياء؟ هل أبشر بالصَدَفة إنها عطوفا؟ هل أدعو بعد عبادة يهوه والله إلى عبادة الصَدَفة وأبشر الناس بالخلاص؟ لماذا؟ لماذا الكذب؟ يقال أن لا حياة للإنسان دون أمل. لكن الإنسان لا يحيا، إنه يموت. وأما أنا، فإني أشعر أني لن أتجاوز هذه الليلة حيا ولن أبدأ في ليلتي الأخيرة بالكذب. وإني لمضطرع

الصدر لأني أصل أخيراً إلى نهاية الموت. أما أنت صديقي المعذب، فما زلت في وسط الطريق إليها.

تعليق من طرف كلود مانيت، خادم السيد موسارد

اليوم، الثلاثين من آب (أغسطس) لعام ألف وسبعمئة وثلاثة وخمسين توفي سيدي الطيّب، المعلم موسارد، عن عمر يناهز السادسة والستين. وجدته في الصباح الباكر في جلسته المعتادة في سريره. عجزت عن إغلاق عينيه لأن أجفانه لم تقبلا الحراك. ولما أردت أخذ الريشة من يده انكسرت سبابة يسرى سيدي كالزجاج. بجهد جهيد تمكن غاسل الجثث من إلباسه ثياباً، لأن سيدي لم يتخل عن جلسته المتحجرة بعد انقضاء فترة تصلب الموتى الاعتيادية. لم يعرف الدكتور بروكوب، طبيب سيدي وصديقه، حلا سوى الأمر بصنع تابوت قائم الزاوية. وفي اليوم الأول من شهر أيلول/ سبتمبر أرقد سيدي رقدته الأخيرة في مقبرة باسي، لدهشة المعزين، في قبر قائم الزاوية، حيث أهلت عليه بعد الدفن آلاف الورود. ليشمل الربّ روحه برحمته.

ملاحظة تأملية

فقدان الذاكرة الأدبية

ماذا كان السؤال؟ نعم، نعم. طيب، طيب. ما هو الكتاب الذي أثر فيّ، طبعني بطابعه، دمغني بدمغته، هزني من الأعماق، الكتاب الذي «حدد خط حياتي» أو الذي «أخرجني من مساري».

يبدو لي وكأن السؤال يدور حول صدمة عصبية أو حالة انهيار عصبي. وعادة ما يستحضر المريض هذه الأمراض في الأحلام المفزعة، وليس وهو في حالة وعي كامل. هذا بصرف النظر عن أن يكتبها أو ينشرها علنا كما أشار إشارة حق، هكذا يبدو لي، عالم نفس نمساوي لا يحضرني اسمه الآن، في دراسة جديرة جداً بالقراءة، لا أتذكر عنوانها على وجه اليقين، لكنها ظهرت في مجلد صغير عنوانه الرئيسي «الأنا والأنت» أو «الهو والنحن» أو «الأنا والذات» أو إلى ما هنالك. لا أذكر إن أعيد طبعه لدى دار النشر روفول، فيشر، dtv، زوركامب، لكن غلافه كان أخضر على أبيض، أو أزرق فاتح على صفار، إن لم يكن أخضر على أزرق على خضار.

وربما لم يكن السؤال أصلا عن تجربة القراءة العصابية المحبطة، بل يدور حول التجربة الفنية التي تهز البدن، كما

ورد في القصيدة الشهيرة «أبولو الجميل»... لا، لا، أظن أن عنوانها لم يكن «أبولو الجميل». بل كان لها اسم آخر، كان في عنوانها شيء يعود إلى فجر التاريخ مثل «تورسو الشاب» أو «أبولو الأزلي الجميل» أو ما شابه، لكن ليس هذا موضوعنا... إذاً، كما ورد في هذه القصيدة المشهورة للشاعر... للشاعر... لا أستطيع في هذه اللحظة استذكار اسمه، إلا انه كان فعلاً شاعراً مشهوراً جداً، بعينين كعيني البقر وشارب، وأمّن لذلك النحات الفرنسي السمين (ماذا كان اسمه؟) شقة في باريس في شارع دو فارين، لا، كلمة شقة ليست التعبير الدقيق، الأحرى أن نقول قصراً، له حديقة يزيد نصف قطرها على سير عشر دقائق (وعلى الهامش أتساءل كيف مول أولئك الناس كلّ هذا في زمانهم)، وعلى كل حال فكما تعبر هذه القصيدة الرائعة، التي لا أستطيع تلاوتها كلها الآن، لكن السطر الأخير فيها محفور في ذاكرتي كإملاء معنوي دائم لا تمحوه الأيام. يقول السطر: «عليك تغيير حياتك».

فكيف هو الأمر إذن مع الكتب التي أستطيع القول إن مطالعتها غيرت حياتي؟ لأسلط الضوء على هذه المشكلة أتقدم إلى مكتبتي (حدث هذا قبل أيام قليلة) وأتنقل بنظراتي على ظهر الكتب. وكما يحدث دائماً في هكذا مناسبات، أي إذا تجمعت الكثير من النماذج على بقعة صغيرة وتاهت العين في الكثرة، أدوخ في البداية ولكي أتمكن من التغلب على الدوخة

أمد يدي على غير هدى إلى رفوف المكتبة، آخذ منها كتاباً ما وأدير ظهري كأني حصلت على غنيمة، أفتحه، أتصفحه وأنشغل بالقراءة.

للحال ألاحظ أني وفقت في اختياري عالي التوفيق. إنه نص فيه نثر مصقول وأفكار جلية، مطرز بمعلومات مهمّة غير معروفة حتى الآن ومليء بأجمل المفاجآت، للأسف لا أستطيع في هذه اللحظة، حيث أكتب، تذكر عنوان الكتاب ولا اسم الكاتب أو محتوى الكتاب، لكن ليس هذا موضوعنا كما سنلاحظ الآن. أم أن هذا الشيء يساهم في تسليط الضوء على لبّ الموضوع؟ إنه وكما قلت كتاب عظيم ما أحمله بين يدي، كل جملة فيه فائدة عظمى. وأتعثر بينما أمضي إلى مقعدي قارئا، أجلس قارئا، أنسى قارئا لماذا أقرأ، أتحول إلى كتلة من الجشع المركز على النفيس الجديد، الذي اكتشفه في الكتاب صفحة بعد صفحة. لا الخطوط تحت السطور ولا إشارات التعجب المرسومة بقلم الرصاص تزعجني في هذا الكتاب، وهي آثار قارئ سابق أمقتها عادة في الكتب، لا تزعجني في هذا الكتاب مطلقاً، فالسرد جذاب والنثر جذل، بحيث لا ألاحظ آثار القلم الرصاص أصلا وإذا ما لاحظتها فلأني أوافق عليها، فيتبين لي أن قارئي السابق، لا أعلم أدنى علم من يكون، يتبين لي، أقول، أن هذا وضع خطوطه وإشاراته تماما في نفس المواضع التي أثارت أكثر اهتمامي. وهكذا أقرر أن

أتابع القراءة، تتضاعف متعتي بالقيمة العالية للكتاب والزمالة الروحية مع القارئ السابق، أغوص أعمق في العالم الشاعري، أتتبع بمزيد من الدهشة الطريق الرائع الذي يقودني إليه الكاتب. . . حتى أصل إلى مكان يكون قمة في النثر وينتزع مني صيحة إعجاب: «فكرة عظيمة! طريقة رائعة في السرد!». وأغمض عيني لحظة لأتأمل فيما قرأته ومهد لي طريقاً في تيه وعيي، فتح أمامي أفقاً جديدة تماما، وهبني على الفور معارف وخواطر جديدة ويهمزني فعلاً بتلك الشوكة: «عليك تغيير حياتك». وآليا تمتد يدي إلى قلم الرصاص وأفكر: «يجب أن تضع خطا تحته» و«ستكتب على طرف الصفحة جيد جدا وتضع بعدها إشارة تعجب سميكة وتلخص طوفان الأفكار في بعض النقاط الرئيسية التي بعثها فيك المقطع كي تعين ذاكرتك وكي نوثق توصية بالكاتب الذي كشف لك هذا الكشف».

لكن وعندما أنزل قلم الرصاص على الصفحة لأشخبط «جيّد جداً» أجد أن هناك «جيّد جداً»، كما أن قارئي السابق كتب خلاصة النقاط الرئيسية التي أود تدوينها وكتب بخط يد أعرفه جيداً، بخط يدي أنا، فليس القارئ السابق إلا أنا. كنت قد قرأت الكتاب منذ زمن بعيد.

هنا أشعر بانقباض مجهول. لقد استولى علي المرض القديم من جديد، فقدان الذاكرة الأدبية. فقدان الذاكرة الأدبية الكلي. وتغمرني موجة من الاستسلام للقدر لأتساءل عن جدوى كل السعي إلى المعرفة، السعي عموماً. لماذا نقرأ إذن، لماذا أقرأ مثلا هذا الكتاب من جديد، إذا كنت أعرف أني لن أتذكر منه أي شيء على الإطلاق بعد قليل؟ لماذا أفعل شيئاً على الإطلاق، إذا كان كل شيء سيضيع؟ لماذا أعيش إذا كنت سأموت؟ أغلق الكتاب الجميل، أنهض وأتوجه إلى رفوف المكتبة كالمنهار، كالمعذب، وأدس الكتاب بين صفوف المجلدات الأخرى المجهولة، الشاملة والمنسية.

يبقى النظر معلّقاً على حافة الرف. ماذا أرى هنا؟ آها، نعم، نعم. ثلاث كتب عن سيرة حياة الكسندر الكبير. لقد قرأتها كلها ذات مرة. وماذا أعرف عن الكسندر الكبير؟ لا شيء. على طرف الرف التالي أرى ثلاثة موسوعات عن حرب الثلاثين عاما، بينها ٥٠٠ صفحة من «فيرونيكا ويدجوود» وألف صفحة رواية «فالنشتاين» لغولو مان. قرأت هذا كلّه برضا وماذا أعرف عن حرب الثلاثين عاماً؟ لا شيء. صف الرفوف تحته مملوء من أوله إلى آخره بكتب عن لودفيغ الثاني من بافاريا وعهده. لم أكتف فقط بقراءتها، بل فلحت فيها فلاحة أكثر من عام وكتبت عنها ثلاثة سيناريوهات، كنت تقريباً خبيراً في لودفيغ الثاني. ما الذي أعرفه الآن عن لودفيغ الثاني وعهده؟ لا شيء. لا شيء على الإطلاق. أواسي النفس، حسناً، قد يمكن تحمل فقدان الذاكرة الكلي فيما يتعلق بلودفيغ الثاني، لكن ماذا بشأن تلك الكتب هناك، جانب المكتب، في أجمل الأقسام،

القسم الأدبي؟ ما الذي بقي في الذاكرة من Anderschkassete ذات ١٥ مجلداً؟ لا شيء. ماذا بقي من هاينريش بول، فالزر، كوبن؟ لا شيء. ماذا بقي من مجلدات هاندكه العشرة؟ أقل من لا شيء. ما الذي أعرفه بعد عن رواية «تريسترام شاندي» عن اعترافات جان جاك روسو، عن نزهة سويم؟ لا شيء. لا شيء. لكن هنا، كوميديا شكسبير. قرأتها كلها العام الفائت. لا بد أن شيئاً منها علق في الذاكرة، معلومة ثانوية، عنوان واحد من عناوين كوميديا شكسبير. لا شيء. لكن بحق السماء، على الأقل غوته، غوته، مثلا هناك، هذا المجلد الأبيض «الألفة الخيارية Die Wahlverwandschaften»، قرأته ثلاث مرات على الأقل وليس لدي أي علم عنه. كأنما ذهب مع الريح. ألا يوجد كتاب واحد في العالم أستطيع تذكره؟ هذان المجلدان الحمراوان هناك، السميكان مع الأشرطة القماشية الحمراء، يجب أن أتذكرهما، إنهما يبدوان لي معروفين جداً، كقطع أثاث قديم، لقد قرأتهما، عشت في هذين المجلدين أسابيع طويلة، ليس منذ زمن بعيد جداً، ما هذا، ما كان اسمه؟ «الشياطين». أها. مهم. والمؤلف؟ ف. م. دستويفسكي. آها، نعم، نعم. يبدو لي أن عندي ذكرى غامضة عنه، تجري الأحداث في القرن التاسع عشر وفي المجلد الثاني يطلق أحدهم النار على نفسه من مسدس. ليس لدي المزيد لأقوله عنه.

أجلس على كرسي مكتبي. عار. فضيحة. أستطيع القراءة منذ ثلاثين عاما وقرأت، إن لم يكن الكثير، إلا أني قرأت بعض الكتب وكل ما تبقى لي منها ذكرى ضعيفة جداً عن شخص ما يطلق النار على نفسه من مسدس في المجلد الثاني من رواية يبلغ عدد صفحاتها الألف. هل قرأت ثلاثين عاما عبثا. آلاف ساعات طفولتي، شبابي وكهولتي أمضيتها في القراءة ولم أحتفظ منها إلا بنسيان شامل. ولو أن هذه الكارثة تضمحل، لا على العكس، إنها تسوء. إذا قرأت اليوم كتاباً أنسى بدايته قبل أن أصل إلى نهايته. أحياناً لا تكفي قوة الذاكرة لمتابعة مطالعة صفحة واحدة وهكذا تطلع روحي فقرة فقرة، جملة جملة. وقريبا سأصل إلى حد لا أفطن فيه بوعي إلا إلى الكلمات المفردة، التي تتدفق من ظلام نص يزداد غرابة علي، تتوهج في لحظة القراءة كمذنبات لتهوي للحال في تيار نهر النسيان المعتم. لا أتمكن منذ زمن بعيد من فتح فمي أثناء النقاشات الأدبية دون أن يسود وجهي بأن أخلط بين موريكه وهوفمانتال، ريلكه وهولدرلين، بيكيت مع جويس، ايطالو كالفينو مع ايطالو سفيفو، بودلير مع شوبان، جورج صاند مع مدام دي ستايل وهكذا. إذا أردت البحث عن جملة تخطر على بالي أقضي أياما في البحث لأني نسيت اسم الكاتب ولأني أتيه أثناء البحث في بحار نصوص لكتاب غريبين كل الغرابة، حتى أنسى بالنهاية ما الذي كنت أبحث عنه. كيف أسمح لنفسي في هكذا حالة نفسية مشتتة بالجواب على السؤال ما هو الكتاب

الذي غير حياتي؟ ولا واحد منها؟! كلها؟! بعضها؟! لا أعرف.

لكن ربما، أفكر هكذا لأواسي نفسي، وربما لم يكن أمر القراءة (كما مع الحياة) مع التحويلات والتغيرات الفجائية على كل هذا العمق. ربما كانت القراءة بالدرجة الأولى عملية تشرُّب، رغم أن الوعي يغرق فيها كليا، إلا أنه يغرق بطريقة تناضحية غير ملحوظة، بحيث لا تدرك العملية. إذن فالقارئ المصاب بفقدان الذاكرة الأدبية يتغير بالتأكيد بفعل المطالعة، لكنه لا يلاحظ، لأن الجهات المختصة بالنقد في دماغه تتغير أيضاً أثناء القراءة وهي التي تستطيع أن تقول له إنه تغير أم لا. وبالنسبة لشخص يكتب، فقد يكون المرض نعمة، بل وتقريبا شرطا لا بد منه، يحفظه من الهيبة الشالة التي يوحي بها كل عمل أدبي عظيم ويمنحه علاقة غير معقدة أبداً مع الانتحال، الذي لا يمكن نشوء شيء حقيقي دونه.

أعرف، هذه مواساة ولدتها الضرورة، مواساة نتنة ومشينة وأحاول التخلص من وصمة عارها. عليك ألا تستسلم لفقدان الذاكرة المهول هذا، أقول، عليك أن تصمد بكل قوة في وجه سيل نهر النسيان، عليك ألا تغرق كليا في نص ما، بل عليك أن ترتفع فوقه بوعي واضح، ناقد، عليك أن تستخلص منه أفكاراً، أن تدون ما يذكرك به، أن تقوم بتدريب الذاكرة، وبكلمة، وهنا أقتبس من قصيدة مشهورة، سقط اسمها واسم مؤلفها من ذاكرتي في هذه اللحظة، لكن سطرها الأخير محفور في ذاكرتي كإملاء معنوي دائم لا تمحوه الأيام، جاء فيه «عليك، عليك أن... عليك...».

آه، مصيبة. الآن نسيت الكلمات، لكن ليس هذا موضوعنا، فمعناها حاضر لي فعلاً. كان معناها تقريباً: «عليك تغيير حياتك».

الفهرس

هذا الكتاب

ماذا كان السؤال؟ نعم، نعم. طيّب، طيّب. ما هو الكتاب الذي أثر فيّ، طبعني بطابعه، دمغني بدمغته، هزني من الأعماق، الكتاب الذي «حدد خط حياتي» أو الذي «أخرجني من مساري».